التربية البيئية

مدخل للوعي بالمشترك الإنساني

د. أحمد الفراك

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

جامعة عبد المالك السعدي/تطوان

مقدمة

اهتم الفكر الفلسفي قديما وحديثا بالبيئة الطبيعية، بشكل يعكس انشغال الإنسان بمحيطه الطبيعي منذ أن طرأ على الوجود، ومحاولاته في إيجاد أجوبة مُقْنِعة لجملة من الأسئلة التي تثيرها مظاهر الكون الطبيعي وظواهره، في انتظامها وانسجامها من جهة، وتأثيرها على الحياة البشرية الفردية والجماعية، إيجابا وسلبا من جهة أخرى، فقد نحتت الفيزياء اليونانية مثلا جملة من المفاهيم الطبيعية (مثل: الطبيعة، المادة، الصورة، الجوهر، العرض، الكون، الوجود، العلة، الهيولى...) واستمرت هذه المفاهيم مع العصور اللاحقة، واغتنت بمفاهيم وتخصصات وحقول معرفية متصلة بالموضوع. لا يتسع المقام هنا لتتبع تطورها واتساعها.

لا غرابة أن يُسمَّى الفلاسفة الأوائل بالفلاسفة الطبيعيين أمثال طاليس وأنكسمانس وأنكسماندر، لأنهم تساءلوا عن أصل الكون والقوانين الناظمة له، وطبيعة المادة وعلاقتها بالفكر، فاعتبر طاليس أن «العالم صادر عن الماء وراجع إلى الماء. وبتعبير أقرب إلى كلامه: إن العالم يخرج

من المحيط ويرجع إلى المحيط»[1]، وأجاب أنكسماندر عن سؤال حول أصل الكائنات الحية بقوله: «إنها نشأت من الرطوبة بعد أن تبخرت الشمس، وكان الإنسان كغيره من أنواع الحيوان، فكان في البدء سمكة»[2]، واعتبر أنكسمانس أن أصلها من الهواء الذي هو «مادة لا نهائية معينة متحركة علة الحياة في العوالم.. منه تكونت الأشياء بالتكاثف والتخلخل»[3]، وآخر قال أن أصلها من نار ورابع قال من تراب، فيما يسمى بـ«الأسطقسات الأربع»، أي العناصر التي تؤلف الكون والتي لولاها لما وجدت الحياة. وظن غيرهم ظنونا أخرى كالعدد والعقل واللامتعين والذرات...

كما كتب أرسطو طاليس في الطبيعة وما بعد الطبيعة، وتحدث عن عادات الحيوانات وبيئتها، وألف كتاب «الحيوان»، وقاس ظواهر الطبيعة على سلوك الإنسان والحيوان، ففسر حركات الأجرام السماوية وكأنها حركات كائنات حية، ورتب الموجودات ترتيبا تصاعديا بدءا بالعناصر البسيطة الماء، التراب، النار، الهواء، وبعدها المعادن، ثم النباتات والحيوان، وبعد ذلك يأتي الإنسان، وأخيرا ترتقي الأجرام السماوية في أعلى الرتب وأشرف المقامات.[4] ونشر أبوقراط كتابا بعنوان «عبر الأجواء والمياه والأماكن»، يذكر فيه تأثير هذه العوامل الثلاثة على الكائنات الحية ومنها الإنسان، وتوالت الاهتمامات الفلسفية بالطبيعة إلى أن استقلت العلوم الطبيعية في القرن السادس عشر عن الفلسفة، وتعددت تخصصاتها بتعدد مناهجها وموضوعات اهتمامها التفصيلية.

المبحث الأول: من الوعي بالمشكلات البيئية إلى فقه الائتمان

المطلب الأول: في ضرورة الوعي المشترك بالأزمة البيئية

رغم ما للاهتمامات الفلسفية القديمة من قيمة عظمى في تركيز النظر على المعطى الكوني في تكامل عناصره وتفاعلها، وتأثير ذلك على حياة الإنسان وتفكيره، إلا أنها اليوم لا تنفع نظرية «أخلاق الفضيلة» لأرسطو طاليس، ولا نظرية «أخلاق الواجب» لإيمانويل كانط، ولا نظرية «أخلاق المنفعة» لوليام جيمس، في استيعاب مشكلات «البيئة والإنسان» المستحدثة في عالمنا المعاصر، ولا تستطيع

1- بلدي، نجيب. دروس في تاريخ الفلسفة، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1987م، ص14

2- الأهواني، أحمد فؤاد. فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، ط1، 1954م، ص 62

3- الخطيب، محمد. الفكر الإغريقي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط 1، 1999م، ص 99

4- انظر: الجابري، محمد عابد. مدخل إلى فلسفة العلوم، 2- المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، المغرب: مطبعة دار النشر المغربية، ط1، 1976م ص 38

تنمية «الوعي الكافي» لإيقاف نزيف هذا الكون العظيم ومعاناته جراء استفحال جشع الإنسان وتسلطه على الطبيعة وبالتالي على نفسه والأحياء والحياة من حوله.

البيئة تسخير إلهي ومشترك إنساني، إذا فسدت تضرر الناس أجمعين، وإذا صلحت انتفع الخلق في العالمين، وباعتبار الوعي المتنامي بالطابع العالمي لمعضلات البيئة ظهرت مؤلفات وهيئات تندد بالسياسات التنموية والتقنية والعسكرية التي تدمر البيئة وتلوث الطبيعة، وتدعو إلى الحفاظ على الموارد الطبيعية بعيدا عن التلويث والتتبير والتخسير، والتصدي للتحديات التي تواجهها من خلال إثارة القيم الأخلاقية العالمية[1] في نفوس البشر بحسب ما يؤمنون به من عقائد دينية، وما يصدقونه من أفكار ومرجعيات ومذاهب، وما يتصرفون وِفقَه من نماذج ثقافية ترشد سلوكاتهم.

أمسى الاهتمام بالبيئة منصبا من طرف الجميع على مشكلاتها المركبة ومداخل علاجها التربوية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، إذ المشاكل البيئية أو المشاكل المرتبطة بالبيئة الطبيعية تُطرح في عصرنا على مستوى لا يستثني أمة من الأمم ولا مجالا من المجالات، نظراً لارتباطها بالإنسان ومصالحه من جهةٍ بوصفه الفاعل المؤتمن، وبالأرض وتوازنها من جهة ثانية بوصفها المحل الوحيد الممكن لهذا الائتمان ومجال التسخير فيه. فالاهتمام بقضايا البيئة الأخلاقية والطبيعية والجمالية لم يعد أمرا يخص فئة من المختصين في موضوع ما، ولا دولة في شأنها الداخلي بل أضحى اهتماما أمميا يتخطى الحدود السياسية، و»لقد أصبح لازما على المجتمع الدولي أن يتعامل مع هذه القضية خارج إطار حدود الدول والأطر السياسية»[2]، مثلما لا يتوقع لاقتراحات الحلول أن تكون ناجعة إلا إذا استحضرت الوعي بالأبعاد الفلسفية والأخلاقية العالمية.

رغم ما يشعر به الناس جميعا من أهمية للحفاظ على البيئة الطبيعية من أجل استمرار حياة الأحياء عليها، وما يعلمونه من أن إفسادها يلحق الضرر والهلاك بالحياة على وجه الأرض، ويعيق أداء الكائن البشري لمهمته الاستخلافية. يُتهم الإنسان في جميع الأبحاث والدراسات والملتقيات والتقارير ذات الاختصاص في الشأن البيئي بكونه الفاعل الرئيس في جريمة الإخلال بالبيئة، بل

1- انظر: هانس كينغ. مشروع أخلاقي عالمي، دور الديانات في السلام العالمي، ترجمة: جوزيف معلوف وأورسُولا عسَّاف، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م.

2- الخولي، أسامة. البيئة وقضايا التنمية والتصنيع، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: 285، (1423هـ/ 2002م)، ص 22

التآمر على تدميرها[1]، ونتيجة لذلك الشعور نشطت الكتابات الفلسفية والأخلاقية في الموضوع، وارتفعت أصوات أفراد ومؤسسات حكومية وتطوعية، لتنبيه الإنسان المعاصر إلى ما اقترفه – الظلوم الجهول- في حق الطبيعة من تدمير وتخسير، حتى أوشك على «نسف جميع القيم والمثل العليا...وتداعي جميع الهويات»[2].

يكفي دليلا على استفحال الأزمة البيئية واتساع نطاقها اليوم أن نسمع ونطالع باستمرار الحديث عن «أزمة التغذية» و«أزمة الطاقة» و«أزمة السكان» و«أزمة السكن» و«أزمة التلوث» و«أزمة الماء» وغيرها، بل ظهرت مؤلفات ودراسات وأبحاث في موضوعات بيئة تنبئ عن خطر الأزمة البيئية من خلال عناوين مزعجة مثل: «الانفجار السكاني»، «القنبلة السكانية»، «كوكب يموت»، «كوكب ينتحر»، «عالم مزدحم»، «المدن الدخناء»، «الربيع الصامت»، «الصيف الطويل»... وليس باطلا أن يتحدث العقلاء بإلحاحٍ عن تطور الأزمة البيئية وعن مآلات اللامبالاة بها. حتى قيل: «من الممكن تشبيه الضرر البيئي الذي يسببه البشر بفعل السرطان في الجسم البشري، أي سرطان قاتل، والذي إذا لم يكبح جماحه سيترك الجسم الذي يغزوه جثة لا حياة فيها»[3].

ونذكر من بين هذه الجهود هيئة «تحالف الأديان والمحافظة على البيئة» وهي مؤسسة بريطانية نشأت عام 1995م، تحفز أتباع الأديان على تطوير قدراتهم في إدارة وتنفيذ البرامج البيئية على أساس تعليمات دينهم، وانضمت للشراكة مع البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة من خلال برنامج يهدف إلى معالجة قضايا البيئة وخاصة منها مشكلة تغير المناخ وتداعياته الخطيرة على الحياة بصفة عامة. ويعتمد هذا البرنامج على وضع خطة عملية زمنية تستمد أُسسها من المبادئ والقيم التي يدعو إليها الدين المشترك (الكُليات الدينية التي لا تختلف فيها المِلل)، بغرض مساعدة المجتمعات المحلية على اتخاذ القيم الإيمانية حافزا للمواطنين على تغيير سلوكياتهم، واستجابت العديد من الطوائف والمؤسسات الدينية والفلسفية، وقدم بعض المسلمين خطتهم كذلك تجاه البيئة والمساهمة في الحفاظ عليها عبر العديد من الاجتهادات النظرية والعملية.

1- صباريني، محمد سعيد والحمد رشيد. البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 22، (أكتوبر 1979م)، ص 107

2- الدواي، عبد الرزاق. موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1992، ص 35

3- نيوتن، هـ. ليزا. نحو شركات خضراء، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: 329، 2006م، ص128

المطلب الثاني: حُب التملك وإفساد روح الائتمان على البيئة

حُبِّب للإنسان ابتداءً التمتع والتشهي والتملك، وتضاعف ذلك مع ارتفاع مستوى الاستهلاك في المجتمعات الحديثة والمعاصرة نتيجة التأثر بفلسفة غربية تحكمية لا تولي للمعنى قيمة في الحياة أمام مغريات تزيين المزيد من الاستهلاك اللامحدود، يقول مشيل سير (Michel Serres) في كتابه «العقد الطبيعي»: «التحكُّم والتملُّك، هو شعار ديكارت الذي رفعه في فجر العصر العلمي والتقني الحديث، عندما انطلق العقل الغربي فاتحا ومستكشفا للكون «نسيطر عليه ونتملكه»، هذه هي الفلسفة المشتركة بين المشروع الصناعي والعلم الذي وُصف بأنه محايد وموضوعي. إن التحكم الديكارتي يؤسس العنف الموضوعي للعلم كاستراتيجية مُهدِّدة. إن علاقتنا الأساسية بموضوعات العالم أضحت تتلخص في الحرب والمِلكية...»[1]، ولا تلتفت إلى أخلاق المحبة أو الأخلاق العلائقية، أو «أخلاق العناية»[2] بتعبير فيرجينيا هيلد.

ويضيف ميشيل سير: «إن الخسائر التي كبدها الإنسان للعالم، تساوي الخسائر التي يمكن حربا عالمية أن تتركها وراءها...لقد أصبحنا بحكم تحكمنا المفرط في الطبيعة ضعفاء أمامها، حتى إنها تهددنا بدورها لتسيطر علينا. فمن خلالها ومعها وداخلها نقتسم نفس القدر. وأكثر من كوننا نملكها، ستملكنا هي بدورها، كما في القديم، عندما كنا نخضع للضرورات الطبيعية، لكن مع فارق نوعي. في الماضي، كان الخضوع محليا، أما اليوم فسيكون عالميا.»[3]

هذا التحكم وما تلاه من تملك زاد من جشع الإنسان وضاعف من استغلاله لموارد الطبيعة وإفساده لخيراتها، يقول موران: «إن الهيمنة الجامحة للتقنية على الطبيعة تقود الإنسانية نحو الانتحار»[4]، وما زادته الكُشفات العلمية والتكنولوجية المتطورة إلا استفحالا واستفحاشا، فلقد «غلا الغرب في استغلاله للطبيعة، فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية على أنواعها كافة وتقدم التقنية في خدمة الإنسان، فإن تأليه الرغبات...أدى إلى اغتصاب الإنسان للطبيعة، أي إلى استثمار الطبيعة وتطويع قواها لإشباع الرغبات دون وازع أخلاقي، دون معيار يعلو على الطبيعة والرغبات

1- مشيل، سير. العقد الطبيعي، دار فلاماريون للنشر (Groupe Flammarion)، باريس، ط1، 1990م، ص58

2- فرجينيا، هيلد. أخلاق العناية، ترجمة: ميشيل حنا متياس، مجلة علم المعرفة، الكويت، عدد 356، ط 1، أكتوبر 2018.

3- مشيل، سير. العقد الطبيعي، مرجع سابق، ص58

4- إدغار، موران. تربية المستقبل، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2002، ص65

معا ويخضعهما لقيمه وأوزانه، فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب مما أدى بدوره إلى قلب توازن الطبيعة في كثير من الحقول»[1]، إلا أن الناس قد يغفلون عن الأسباب التي توقع الفساد في البيئة، بل قد يشاركون في عملية الإفساد عن غير وعي منهم أو تقليلا من تأثيرهم، أو اتهاما للغير وتبرئة للذات وعدم تحمل المسؤولية، أو بعدم القدرة على التخلي عن عوائدهم الاستهلاكية الإهلاكية التي لا تلقي بالاً لنتائج اللامبالاة التدميرية والأنانية الاستفسادية.

المبحث الثاني: في الحاجة إلى وعي بيئي ائتماني

المطلب الأول: فلسفة البيئة وتجديد الوعي البيئي

يحتاج الوعي بأهمية البيئة في الحياة إلى وعي أعلى يستحضر عمق الأزمة البيئية التي تواجه الإنسانية جمعاء في حاضرها ومستقبلها، وبمظاهر هذه الأزمة وخطورتها ومآلات التهاون بصدد إيجاد حلول لمشاكلها المركبة والمستعصية، بعد إدراك الأسباب والعلل الكامنة وراء التدهور الخطير الواقع والمحتمل للمجال البيئي (برا وبحرا وفضاء)، وبيان سبب العلاقة غير السوية بين الوضع البيئي الحقيقي والادعاء البشري المزعوم. لعل الإنسان يتذكر مسؤوليته في حفظ الأمانة التي أودعيت عنده، قبل إجباره على أداء فاتورة التأخر..

لا يكتفي الوعي الجديد بوصف الواقع البئيس وإنشاء خطاباتٍ باردة تتحدث عن الطموح والآمال والأحلام الجميلة، بلُغةٍ متأسفة وعاجزة عن الإقناع والتأثير. بل يتجاوز ذلك إلى إصلاح منهاج التربية الإنسانية، قبل بذل وتنظيم الجُهود الجماعية لتحقيق الوعي العالمي المشترك بالأزمة أولا، ثم إشراك الجميع؛ أفرادا وهيئات، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، في إعداد برنامج الحل المشترك وتنفيذه.

لا ننكر بالمناسبة ازدياد الوعي بمشكل البيئة في الغرب نتيجة الصيحات المتتالية لمراكز الدراسات والأبحاث، ومع ظهور جماعات الخضر الذين يشُنون حملات واسعة ضد الإساءة للبيئة من خلال الضغط على الحكومات من أجل سَنّ تشريعات قانونية بُغية الحد من تلوث البيئة ومنع الاستغلال المفرط للطبيعة، مما «ساعد على تحسيس الرأي العام العالمي بخطورة الأزمة البيئية الراهنة، وعلى شحذ الوعي بتداعياتها وإسقاطاتها المرجَّحَة على الحياة في كوكب الأرض، ومن ثمة على وجود الجنس

1- الفاروقي، إسماعيل. «نحن والغرب»، مجلة المسلم المعاصر، القاهرة، السنة 3، العدد 11، رمضان 1397هـ/سبتمبر 1977م، ص 30-29

البشري برمته وعوالمه الثقافية والحضارية. وربما كان ذلك ما أهَّل الأزمة المذكورة لتصبح موضوعا لنقاش عالمي لا يفتأ يتسع ويتعمق»[1].

يتسع الوعي طبعا غير أن الواقع البيئي لم يعرف تحسنا رغم تلك الجهود، إذ لا تزال الكوارث البيئية تهدد الإنسان وباقي الأحياء على الأرض، مما يجعل أزمة البيئة اليوم تشكل تحديا عالميا يفوق قدرات البشر على حماية مكان سعيهم وابتلائهم، نظرا لما أُلحقت به من أضرار عَجز العلم المعاصر بكل إنجازاته عن إيقافها، من قبيل المشكلات الناجمة عن الفقر والمجاعة والأمراض الفتاكة ونقص الغذاء وندرة الطاقة وتلوث الفضاء والاحتباس الحراري وثقب الأوزون، ناهيك عن تلوث البحار والمحيطات...وكل واحدة من هذه المشكلات يمكنها أن تطرد الإنسان من سطح الأرض بعد أن تقلب أمنَه البيئي خوفاً ورعباً.

ترى الدراسات البيئية المعاصرة والمشتغلة أكثر بفلسفة البيئة أن المشكل البيئي هو مشكل إنساني مشترك بين جميع أمم الأرض، ذلك أن «وطننا ليس المنزل أو الشارع أو البلد الذي نعيش فيه، بل هو الأرض نفسها»[2]، التي تحتضن تنفيذ ما يخططه عقل الكائن البشري ويخمنه، فكما أضحى العالم سوقا من البضائع التجارية يقتنيها الناس من أقطار الأرض، فكذلك يشكل العالم بيئة يقطنها الناس من جميع الأجناس. ولا انعتاق خارج تجديد الوعي بمسؤولية الإنسان عن تدهور ظروف وجوده، وإيقاظ سكان العالم وقادته بُغية إنقاذ بيتنا من الخراب الذي لحق الحياة والأحياء فيه.

هذا ما تحاول إيصاله الفلسفة البيئية إلى قيادات العالم فكريا واقتصاديا وسياسيا، لتقنع الإنسانية بأن الأرض هي الكُويكب الحي الوحيد في النظام الشمسي الذي يستقبل وجودنا واستمرار حياتنا إلى حين، وقد يرفضنا في يوم من الأيام ويطردنا من محيطه الحيوي، ويحرمنا من طيباته نتيجة تهورنا وعنادنا ولا مبالاتنا، يقول جيمس لفلوك: «فالأرض لمصلحتها وليس لمصلحتنا قد تجبر

1- الدواي، عبد الرزاق. «مجتمع المعرفة..معالم رؤية تكنولوجية جديدة للعالم»، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد3، ص 113

2- لفلوك، جيمس. وجه غايا المتلاشي، ترجمة سعد الدين خرفان، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: 388، (ماي 2012م)، ص 8

على الدخول في مرحلة حارة، حيث يمكنها البقاء، ولكن بحالة أدنى وأكثر صعوبة للعيش فيها، وإذا حدث هذا كما هو محتمل، فسنكون نحن السبب في ذلك.»[1]

تركز أدبيات الفلسفة البيئية عموما على المدخل التربوي والفكري والأخلاقي، معتقدة أن «الإنسانية لن تجد سعادتها إلا بإصلاح ذاتها روحيا ومعرفيا وأخلاقيا، فإذا نتجت الأزمة العالمية للبيئة عن فعل الإنسان، وكان فعل الإنسان مجسدا لمستواه التربوي وكيفية تفكيره ورؤيته للعالم، فإنه لا ينصلح الفعل إلا بإصلاح ذات الإنسان أولا، أي بتغيير الإنسان، وصناعة النموذج المعرفي الذي يؤطر رؤيته لنفسه وللكون من حوله وللحياة، حتى تتغير تبعا لذلك رؤيته لذاته وللعالم المحيط به. بعدها سيسعى للحفاظ على الحياة الإنسانية الآمنة الكريمة الممتدة من حيث هو جزء لا يتجزأ منها. لكن إصلاح فكره كما تريده الفلسفة البيئية يحتاج إلى نظام معرفي عالمي بديل قادر على إعادة تركيب ما تفكك، وبناء ما تهدم، وتقويم ما اعوج، وتصحيح ما تحرف، وتتميم ما نقص. أي أن الفلسفة البيئية نفسها تحتاج إلى وعي عميق يخلصها من حصار الرؤية المادية والبديل اللاديني»[2] المتطرف الذي يدير ظهره لإسهام الدين في حل مشكلات الإنسانية المعاصرة.

يقول محمد عزيز الحبابي: «هل يمكن أن نرتفع من مستوى الضمير الفردي إلى ضمير جماعي، بحيث تتصل الأخلاق بالاجتماع بصلة متينة؟» فيقول: «هذا التساؤل في غير محله، لأن الأخلاق مجتمعية في أصلها، فكل مسؤول، مسؤول أمام ضميره، طبعا، أمام البيئة، والبيئة وحدها مقر القيم والمعايير الأخلاقية، وهي الخالقة للضمير خلقا، إذ بها يتكيف، انفعالا للفضائل والمساوئ. فمثلا الوعي أيام الرخاء غيره أيام الشدة. ثم إن أصحاب علم الاجتماع يقرون أن المسؤولية كانت، بادئ ذي بدء، مشتركة غير محددة»[3]، ويستشهد على ذلك ببيت شعري يقول فيه الشاعر: «وما أنا إلا من غُزَيّة إن غوت - غويت وإن ترشد غزية أرشد»[4].

المطلب الثاني: أخلاق العناية أو من أجل رؤية جديدة

بعد قصور النماذج البشرية المعرفية إلى اليوم وانسدادا آفاقها، تستشرف الإنسانية المعاصرة

1- المرجع نفسه، ص 9

2- الفراك، أحمد. البيئة ومشكلاتها المعاصرة، دار القلم، الرباط، ط1، 2016، ص 93

3- الحبابي، محمد عزيز. الحريات أو التحرر، دار المعارف، الدار البيضاء، ط1، 1972م، ص24

4- المرجع نفسه، ص24

نموذجا جديدا يستوعب حسنات المناهج والنماذج السابقة، ويتجاوزها إلى ما لا قِبَل لها به في شموله وتكامل وانسجام عناصره، نموذج علمي عالمي يحمل رؤية مغايرة للإنسان وللكون وللعلاقة بينهما. ولن تظفر الإنسانية بفلاحها إلا إذا أنصتت لصوتٍ سماوي هادئ -حسب تعبير جون جاك روسو- يقرع سمعها ويذكرها بأصلها ومصيرها ووظيفتها، وتهيأت لسماع صوتٍ حملته العناية الإلهية للخلق، وبَين مبادئه ومعالمه الأنبياء والمرسلون، والحكماء والمصلحون، وعملوا به في إصلاح أحوال الناس وزرع أواصر المحبة والتآلف بينهم، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وتذكيرا بالتكليف الإلهي المشترك ولوازمه.

بالوعي البيئي الجديد يشعر الإنسان أن «مَكاننا جُزء منا»[1]، وأنه إذا خَرب فإنما يخرب بيته وحقل استخلافه، ويهدد حياته بتجاهله لما يحدث في البيئة من استفساد، ويُصر مستكبرا بعلمه وحضارته عن سماع صوت الكون وهو يستصرخ الإنسان طالبا النجدة والإنقاذ. ويشعر بأن ما بثه الله من نعيم على الأرض؛ على ظهرها وفي بطنها وفي فضائها هو أمانة لتمكين للإنسان وتنويع معايشه لعله يشكر ويعمل صالحا، قال الله تعالى: {ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون} (الأعراف:9)[2].

لما كان الإنسان هو المؤتمَن في أرض الله جيلا بعد جيل، يخلف بعضه بعضا، سلسلة استخلافية عابرة للزمن، فإن أخلاق الرعاية بالإنسان تفرض علينا أن نسعى إلى تحقيق الإخاء بين أعضاء الإنسانية المُكرمة، في «مواطنة إنسانية» أو «أخوة إنسانية» عابرة للثقافات والحدود الجغرافية والعرقية والمذهبية، وحثُّ الأفراد والجماعات على إنشاء مخالقة جديدة بتعبير طه عبد الرحمن، تستمر معها الخيرية والعدالة من السَّلف إلى الخلَف، في جلب المصالح المشتركة ودفع المضار التي تهدد الأمن البيئي والعمراني الذي هو الأساس المادي لكل فروع الأمن الإنساني الأخرى.

وفي حالة وقوع الفصام بين السلف والخلَف، وضُيّع الائتمان من طرف الجيل اللاحق، اللامبالي بمسؤوليته وواجبه في احترام القيمة الذاتية (Intrinsic Values) لعناصر الطبيعة المختلفة، فإنه يتحول -بلغة القرآن الكريم- من جيل الخَلَفِ إلى جيل الخَلْفِ (بتسكين اللام) الذي خان الأمانة

1- مايكل، زيمرمان. الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة: معين شفيق رومية، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: 333، (2006م)، ص 285

2- ونجد في سفر التكوين، الإصحاح: 11: «وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة»، وفي سفر التكوين، الإصحاح: 13 «لأن جميع الأرض التي أنتَ ترى لكَ أُعطيها ولنَسْلِكَ إلى الأبد».

وقطع الرحم واتبع هواه، وسقط في التخلُّف طبعاً، قال الله تعالى: {فخلَف من بَعدهم خلْف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوفَ يلقون غيا}(مريم:59). اتبعوا الشهوات بمعنى اتبعوا نمطا استهلاكيا يهلك الحرث والنسل، ويفسد في البر والبحر، ويستكبر عن عبادة الله، ويريدها عِوَجا.

الإنسان مكلف بما يسميه طه عبد الرحمن بـ»إيداع الرعاية» ومقتضاه «أن يحفظ المودَع لديه ما أودع من حيث الحقوق التي يقتضيها، فيؤديها كما ينبغي، على أن هذه المحافظة على الحقوق لا تمنع التصرف في الوديعة بما يجلب للمودَع لديه المصلحة ويدفع عنه المضرة؛ بل لعل الأصل في الوديعة المرعية هو الإذن بالتصرف فيها، لأن حقوقها محفوظة»[1] وهو يختلف عما يسميه بـ»إيداع الصيانة»، لأن الأول إلهي ويتملك بموجبه العبد تكريما له «ما أودعه المودِع الإلهي وأن يستكمل به تحقيق ذاته، متصرفا فيه بحسب مصالحه، على أن يراعي حقوق المودِع الإلهي في كل ودائعه»[2]، أما الثاني فهو بشري لا يتملك صاحبه وديعته، لأن «حقّه أن يحفظ المودَعُ لديه الشيء على حاله التي أُودِع عليها إلا أن يتعرض للضرر، فحينها، يعمل، بقدر الطاقة، على دفع هذا الضرر، حتى يسترده المودِع في أجل تُحدده الحاجة إليه أو يُحدده وجود الأمن؛ وبيّنٌ أن دفع الضرر هذا لا يعد تصرفا في الوديعة، وإنما صيانة لها»[3]، ليستنتج بعد ذلك أن «الائتمان عبارة عن إيداع رعاية، بحيث يكون كل ما خلق الله، جل جلاله، من أجل الإنسان هو عبارة عن ودائع أودعها الله إياه، يتملكها كيف يشاء، ويتحقق بها كيف يشاء، شريطة أن يصون حقوقها.»[4]

خاتمة:

يتأسس القول الفلسفي في موضوع البيئة على مبدإ «حفظ الحياة على الأرض»، وهو مبدأ كلي تشترك فيه الأمم والملل والشرائع والمصالح، وليس المقصود بهذه القول رؤية المذهبية المادية بفروعها مادامت مرتهنة للحظة استكبار الاي تغطي الحقيقة المشتركة، ولا يهمها المستقبل المشترك، وإنما هي رؤية مشتركة جامعة، متقدمة على الرؤى التقليدية المتقلصة في النظر القومي أو الإديولوجي أو الجغرافي المحلي، بل يشترك فيها سكان المعمور حفظا لسلامة عيشهم ودفعا للشرور المحدقة

1- طه، عبد الرحمن. رُوح الدِّين: من ضَيق العَلْمانية إلى سَعَة الائتمانية، مرجع سابق، ص 474

2- المرجع نفسه، والصفحة.

3- المرجع نفسه، ص 473- 474

4- المرجع نفسه، ص 474

بهم، مع العلم أنه ليست كل الاهتمامات البيئية تنطلق من رؤية مادية متطرفة، إنما هناك مذاهب فلسفية «تضع القيم والغايات الخلقية فوق المادية...وتعنى بحالة الثقافة والتعليم والقانون والمحبة والخلقية بأكثر مما يعنى بالإنتاج السنوي»[1]، أي أن هناك مدارس فلسفية بيئية ترفض التحليل التخسيري لقضايا البيئة وعلاقتها بالنشاط الإنساني عموما، وتتحاشى «اختزال السعي البشري إلى مجرد الإنتاج والاستهلاك»[2].

إن الوازع الأخلاقي هو الذي يوجه الفعل البشري ليحد من الشراهة والغرق في نمط الاستهلاك المادي ويحفز «ضوابط للصرامة وإنكارا للذات»[3] من شأنها أن تسهم في صناعة وعي إعماري جديد، قبل أن يأتي سوط القدر الذي يرغم الإنسان على الاعتبار الفوري، آنذاك سيوقن بأنه «ليس ثمة صلة بين درجة الرفاهية التي يستمتع بها وتحقيق الحضارة. بل على العكس، إن الاستغراق في راحة البال هو أكثر العلامات الدالة على الاضمحلال الحالي أو الوشيك»[4]، ويعمل على توزين العامل النفسي الذاتي في الإنسان ليتجسد مشروع التوازن في رعاية البيئة الطبيعية المحيطة بنا من كل جهة، ليُتمم بـ«عقد بيئي عالمي» يشترك فيه الجميع بناءً على الأسس المرجعية والمنافع المصلحية المشتركة بين الأنام.

مراجع البحث

هوفمان، مراد. الإسلام كبديل، ترجمة عادل المعلم، مكتبة الشروق، القاهرة، ط1، 1995م.

هانس، كينغ. مشروع أخلاقي عالمي، دور الديانات في السلام العالمي، ترجمة: جوزيف معلوف وأورسُولا عسَّاف، دار صادر، بيروت، ط1، 1998م

الحبابي، محمد عزيز. الحريات أو التحرر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1972م.

طه، عبد الرحمن. سؤال العمل، بحث في الأصول العلمية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط 2012،2م

1- مايكل، زيمرمان. الفلسفة البيئية، مرجع سابق، 2/167

2- المرجع نفسه، والصفحة.

3- المرجع نفسه، والصفحة.

4- المرجع نفسه، والصفحة.

يعقوب أحمد. التربية البيئية ومأزق الجنس البشري، عالم الفكر، عدد 3، المجلد 32، يناير/ مارس2004م

لفلوك، جيمس. وجه غايا المتلاشي، ترجمة سعد الدين خرفان، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: 388، (ماي 2012م)

مايكل، زيمرمان. الفلسفة البيئية؛ من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية، ترجمة: معين شفيق رومية، مجلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: 333، (2006م)

مشيل، سير. العقد الطبيعي، دار فلاماريون للنشر (Groupe Flammarion)، باريس، ط1، 1990م

النجار، عبد المجيد. فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

نيوتن، هـ.ليزا. نحو شركات خضراء، سلسلة كتب عالم المعرفة، الكويت، عدد: 329، (2006م)

السامرائي، نعمان عبد الرزاق. نحن والحضارة والشهود، كتاب الأمة، عدد: 81، (1422هـ/2001م)

عليان، عبد الله علي. حوار الحضارات في القرن الحادي والعشرين؛ رؤية إسلامية للحوار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004

الفاروقي، إسماعيل. التوحيد وأثره في الفكر والحياة، ترجمة السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، ط 1، 2014م.

الفراك، أحمد. البيئة ومشكلاتها المعاصرة، مطبعة دار القلم، الرباط، ط1، 2016م.

فوشو، سيلفي. التهديدات العالمية على البيئة، وجان فرانسوا نويل، ترجمة أسعد مسلم، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط1، 1991م.

فرجينيا، هيلد. أخلاق العناية، ترجمة: ميشيل حنا متياس، مجلة علم المعرفة، الكويت، عدد 356، ط 1، أكتوبر 2018م

صباريني، محمد سعيد والحمد رشيد. البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 22، (أكتوبر1979م)

خنفر، أسماء راضي. التربية البيئية والوعي البيئي، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2016م

الخولي، أسامة. البيئة وقضايا التنمية والتصنيع، عالم المعرفة، عدد 285، الكويت، ط1، 2002م

Donald McTaggart, la Géographie Moderne et LA Pensée Écologique, Cahiers de Géographie du Québec vol. 32, décembre 1988, no 87321